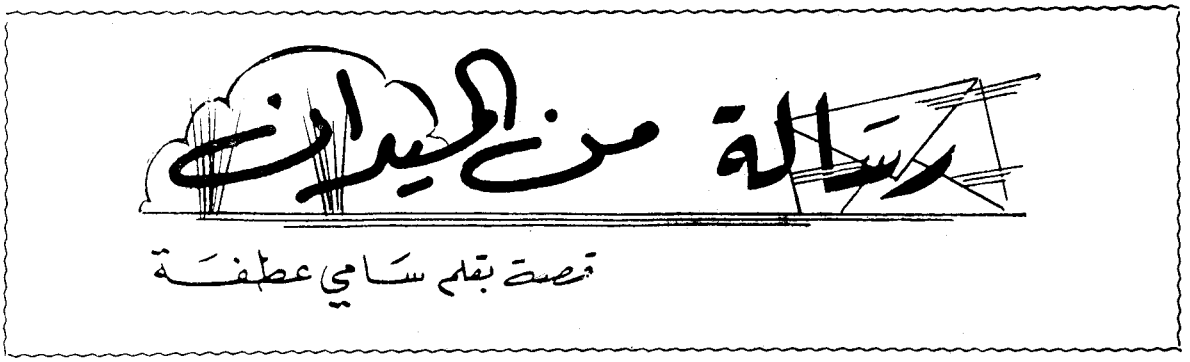

وقفت انفض الغبار الذي تراكم على وجهي وملابسي طيلة ساعات المعركة، وكان العدو قد تراجع مندحراً بعد ان عجز جنوده عن احتلال الرابية التي كنا ندافع عنها . ولكنه ما زال يطلق رصاصه من بعيد ... وعبرت في ذهني بعض الصور الشاردة ، اطفال يتراكضون في الشوارع ، وقطة سوداء تموء على باب منزل مغلق ، وصبية صغيرة شقراء تغني وهي ترحل ضفائرها .. عجبت كيف يجوز لمثل هذه الخيالات ان تدخل ذهني ، انا الذي كنت دائماً اتسم بالجد ، واتقيد بالضروري . وتقدمت خطوتين خارج الحفرة ، وارهفت السمع . كانت الرابية تبدو كطفل استسلم الى الرقاد العميق ، فلم توقظه تلك الجلبة الصاخبة . ومن الشرق لاحت اولى تباشير الفجر ، شفقاً تشيع فيه حمرة الوردة الفتية، يتكيء على كتف الافق كطفل يحلم بالحلوى والنجوم ، عذباً كأغنية فلاحة شابة .. ان ذلك ليزين انتصارنا ويضفي عليه طابعاً من الخبور العميق .. ولكن عجباً «ليس هنالك من حركة واحدة تدل على وجود المجاهدين ..!» تساءلت هكذا، ورحت اصغي ، لم يكن هنالك الا حفيف اغصان الزيتون وقد اخذت تهزها ريح مبكرة .

– ايها الرفاق ..

لم يجب احد .. « اين انت يا ادهم ..! » وعاد الصدى يتكسر تاركاً وراءه صمتاً ثقيلاً . وأجاب صوت من مكان غير بعيد ، ولكنه كان اجش النبرة ضعيفاً :

– يبدو ان هنالك قتلى .. ايها المجاهدون ..!

« قتلى . » لم افكر في هذا ، « اجل لا بد ان يكون هنالك قتلى .. » . ووجف قلبي ، ورحت اسير على غير هدى بخطوات حائرة ، حتى انني نسيت الرجل الذي كان يتبعني ، كنا مثل يتيمين اذن ، وتنابعت في نفسي خواطر شتى ، « الهاغانا » ستذيع الامر ، سيقول مذيع محطاتها: « قامت كتائبنا بهجوم ظافر على التلال العربية ، وقد عادت سليمة بعد ان حطمت كتيبة بجموعها من جيش الانقاذ العربي .. » وصعدت الدماء حارة الى وجنتي . احسست غضباً فاحشاً يملك زمامي «ماذا ستقول محطة القاهرة: « لقد ثبت ابطالنا في مواقعهم امام هجوم العصابات الواسع ، واستشهد عدد منهم .. » . كان هنالك ظل قرب الصخور ، في اعلى المنحدر..ممدداً على الارض « انه جثة ما ولا شك .. » هتف الرجل وهو يمد عنقه فوق منكبي ، وتطلعت اليه لأري اي انطباع ترك ذلك عنده ، واجبته :

– اجل ... ثم تابعت السير نحو ذلك الظل الاسمر الممدد .. وعندما وقفت قرب الصخور ، ظهرت لي الحقيقة . فاستدرت الى الرجل وثبت عليه نظرة متفحصة .. ثم انحنيت راكعاً قرب ادهم المسكين . كم هو فادح ان يخسر المرء صديقاً في تلك المعارك الليلية ! كان هنالك جرحان ينزف الدم منهما ، اولهما بين الوجنة والصدغ الايمن ، والثاني في جانب العنق الايمن ايضاً .. يبدو انه استشهد في الساعة الاخيرة : كانت عيناه الوديعتان الزرقاوان تحدقان تحديقاً عميقاً في السماء ، تحديقاً لا يحمل معنى الموت، وانما تتجلى فيه سذاجة طفل وليد ، تملكته بهجة عميقة لقدوم امه . وخصلات سوداء ناعمة ترف على جبينه العريض ، حيث شمت فكرة غامضة .. وازحت تلك الخصلات الثائرة ، فقد تخيلت انها تزعج فكرته الجميلة تلك .. كان النجيع القاني يلوث وجهه وقد تجمد قدر منه عند زاويتي الفم .. واحسست لمسة يسيرة مرت على كتفي، وعندما استدرت اليه، قال المجاهد بلطف :

– لقد كان صديقك ...

– اجل يا سيدي ..

– لقد كان فتى طيباً ..

واستدار الرجل عني مكملاً ببطء وجزع : « لقد سقط معظم رفاقنا . يا للأسف !... لقد كانوا اشجع فتيان عرفتهم في حياتي .. »

– ارجو ان تساعدني ، ايها الاخ على نقل صديقي .

***

لم يدفن ادهم الا بعد اربعة ايام من استشهاده ، كان ذلك بسبب انتظار القيادة وصول والدي الشهيد ، حيث فتحت وصيته بحضورهما .. كانت وصية بسيطة ، قال فيها ، انه قد حقق امل استاذه ، بأن يكون « عنصر تجديد طيب » على حد قوله . ولقد اوصى بأن يدفن في مقبرة المجاهدين في القرية المجاورة ، معتذراً الى والديه عن ذلك ، بأنه لا يود ان يدفن في غير الارض التي مات مدافعاً عنها، وانهما يجب الا يسفحا الدمع عند تذكره، لانه مات راضياً قرير العين مخلفاً نوعاً من الفخر المتواضع لاولئك الذين احبوه في حياته .. « انني لن انسى ابداً يا امي غصن الورد الذي غرسته اختي تذكاراً لسفري . فاغرسي انت غصناً من السرو عند مرقدي ، فان ذلك سيملأ عيني سلاماً .. »

كانت لحية القائد ترتعش وهو يقرأ ذلك ، واخذ صوته يتهدج .. يا لقائدنا المسكين ، الذي كان يناضل ضد ضعفه ، ليحتفظ بمظهره الرسمي ، كان يحاول ان يهب الثقة للعجوزين اللذين حارت قواهما . ولكننا جميعاً رأينا في جلاء دموعاً مشعشعة كانت تنطلق واحدة واحدة ، وتنزلق على وجنته ، حتى تختفي في لحيته الكثة .. بينما هو يتابع قراءة الوصية ..

كان علي ان اقوم بعمل اخير من اجل صديقي ادهم ، وهو ان اضع رسالته في البريد . لم يكن هناك من اطلع على هذه الرسالة ، وكنت احس

خشيش اوراقها فوق صدري ، حين كنت ارفش التراب على القبر . لقد كانت تلك الرسالة تقلقني جداً . فلا بد انها كانت تحوي سراً انطوت عليه حياة ادهم .

وترددت عندما وقفت امام البريد ، قلت محدثاً نفسي : « هذا هو آخر ما يصلني بصديقي .. ! » ولا ادري كيف رأيت ان من حقي الاطلاع على رسالته . كل ما اعرفه هو انني اتجهت ذاهلاً الى حانة القرية ، وهنالك في ركن منفرد جلست مرتعداً ، وطلبت زجاجة من النبيذ وعلبة جديدة من التبغ .. حينئذ ، أخرجت الرسالة في هدوء .. كانت ثقيلة مغلفة بعناية ومرسلة الى آنسة ، لن اذكر اسمها على كل حال .. وتساءلت : « هنالك سر ولا شك ، فصديقي لم يكن مجرد رقم اطاحت به المعركة . »

***

« عزيزتي الآنسة المهذبة ...

« البعض منا ينصرفون الى ارواء ذواتهم ، من المجد ، ومن الشهرة ومن السعادة ، والبعض يكتفون باداء واجبهم بما يوحيه اليهم المثل الاعلى الذي يقود خطاهم من اعمال ... ولكن هنالك فريقاً من الناس يمضي بحسب ما توجده الصدفة في حياته من ظروف ، هؤلاء الذين ينحنون بعمق أمام الحياة ، فلا ينظرون الى ما هو اعلى من جباههم . ولكنهم لا يتواضعون ايضاً .. من الذي ، بين هؤلاء جميعاً ، يحقق المغزى الحقيقي للحياة ..؟ فيسبغ على شخصه وعلى اعماله نوعاً من القيمة ، وحين نمضي ازاءه ، او حين نمر به ننحني في عمق وتقدير هامسين : لقد كان انساناً حقاً ..!

« على كل ، فانا لا اقصد ان القي في طريق ذهنك مجموعة من الاحابيل العقلية ، فربما كانت المشكلة من اساسها لا تثير في نفسك اي اهتمام . انني سادفع اليك بهذه الرسالة ، غير مطالب اياك باتخاذ موقف معين مني ، او من هذه التساؤلات التي ترد عفواً في ثنايا الخطوط ، وحتى هذه الرسالة لا اريد بها ان تترك في نفسك اكثر من الأثر الذي يتركه حجر يلقى على صفحة الماء ، كما يقول سومرست موم . لك الخيار في الاعتبار وللآخرين الحق والحرية في ذلك ايضاً . اما انا ، فرغم انني كنت دائماً ، بحكم منبتي ومثل حياتي الاعلى ، مرغماً على اتخاذ وجهة نظر فيما يتعلق بتلك الاسئلة ، لا يسعني ، حين تسيطر علي لحظات الشك المشئومة ، إلا ان اعترف بأن الدم قد تسرب الى دمي ، فأكفر حتى بهذا الجهد الذي وقفت عليه حياتي ، وبالنية الطيبة التي تقود خطاي ... إنني لن أقبل الفكرة بأنني قد حييت عبثاً ..

« إنني الجأ اليك ، كما يفعل الملاح التائه ، اذ يحاول اللجوء ، الى ابعد ميناء تقع عليها عيناه ، لكن هذا البعد الذي يتأرجح فوق الهاوية ، لا يوازيه ابداً إلا تلك الصلة التي تصلني بك ..!

« من هذا الذي يكتب وما شأنه ..؟ أجل انك سوف تتساءلين ، وقد يكون ما كتبته أو ما سأكتبه كافياً لأثارة الغيظ في قلبك ... اما من يكون « هذا » ..؟ فأنه واحد دخلت حياته دون قصد منك ، أو منه ، ايضاً .. اما هو ، فقد كان هذا الحادث سبباً في اسرافه ، فأسرف في احلامه على نحو لا يبرره منطق حياته .. أما « شأنه » .. ؟ فأنني سأقول لك ذلك يا آنسة ببساطة .. سأروي لك قصته ، أو قصتي بحذافيرها ..

« نزلت في دمشق قادماً من احدى القرى في الريف في خريف ١٩٤٧ لألتحق بالجامعة بعد ان انهيت دراستي الثانوية في الريف . واذا كان هذا الانتقال قد بعث في نفسي الآمال المشمشمة والاحلام الرائعة ، فانه لا يمكنني ان ارسم لك الانطباعات التي منحتني اياها دمشق لأول مرة ، انها مدينة احتفظت برونقها وشبابها الآف السنين ، ولقد لاحظت حين وقعت عيناي على اطرافها الرابضة على السهل أن دمشق في قصيدة شوقي المزخرفة تعتبر تافهة عندما توضع على مقربة من هذه المدينة الحية الاليفة . على كل حال فانني بقيت وحيداً مغموراً .. وهذا ما ساعدني على الاحتفاظ بحريتي تامة ، فكنت أهيم كل يوم على وجهي في تلك الشوارع الوارفة الهادئة ، يستميلني عنصر غني غامض لم اجد مثيلاً له في غير دمشق . كنت ابدأ هذا التجوال عصر كل يوم ، بعد الدرس الاخير ، امام حديقة المتحف الوطني وعلى الرصيف المقفر تحت الاشجار الباسقة ، تعود اليّ في عفوية وانس تذكارات محببة عن الريف ، تشيع الدفء والثقة في حياتي التي لم تجن غير ثمار الوحدة .. فأبني العالم من جديد ، حسب صيغ ريفية ، بالخضرة النضيرة ، والسمرة ، وأضياء الارواح التي تميل على عنق النهر طيلة المساء ، إن العالم ليرتعش في عمق معلناً عن خصب جديد .. لقد قال لي استاذي القديم وهو يودعني في ساحة القرية : « انت ترى ان مهمتي قد انتهت الآن .. ستتفتح الحياة امام عينيك ، هنالك الكثير من القضايا تحتاج الى حل حقيقي : ان ثورة عربية تنشب في كل مكان من ربوع الوطن ، حاول ان تكون عنصر تجديد في حياتنا وواحداً من رجال الثورة ... » وكانت لحيته ترتعش تأثراً وانفعالاً . اما والدي فقد اوصاني بان اعتمد على نفسي ، وان احفظ شرف الاسرة التي انبتتني . وقالت والدتي وهي تحاول كتم دموعها : « فكر في الله يا بني كلما انتابك الاسى ، فكر بنا ايضاً ... » ثم اضافت عبر دموعها : « تذكر ... سنكون معك دائماً .. » إن هذا كله هو ما يربطني بالريف يا آنسة . وثمة شيء آخر ايضاً ، انه غصن من الورد زرعته أختي تذكاراً ليوم سفري .. أجل هذا هو العالم الذي خلفته ورائي .

« كلما عبرت ذلك الشارع المقفر باتجاه جسر الحرية ، كنت اعزف عن التطلع الى التكية . انها اثر لا مبرر لوجوده على ارضنا ، لذلك لم أجد صلة ما تربطني بها . كنت اتطلع الى حديقة المتحف الوطني ، حيث ربض تمثال رخامي لأسد غيرواضح الهوية ، على مقربة من رجل قيد بالرخام ايضاً ، نحتت ملامحه الندمرية ببراعة تامة .. عبرت هذا الشارع ذات يوم ، وكان الضباب الكثيف يرخي وشاحاً أغبر على المدينة ، وهنالك على الاغصان المتجردة العالية فوق الرصيف ، نشب قتال مضحك بين كتيبتين من الغربان ، فوقفت اشهد هذه المعركة ، وكانت الغربان تلوح بمناقيرها الطويلة في حنق وترفرف باجنحتها في كرها وفرها .. كان هنالك انسجام خفيف بين الغربان وبين المئذنتين المروستين الغارقتين في لجة الضباب . ولقد اوحى الي ذلك المنظر الشاذ بشبح أخذ يتضح حتى تكشف عن وجه مروس متطاول لسلطان عثماني ذي عينين غائرتين خبيثتين ، لا شك في انه وجه السلطان سليم الذي رأيته اكثر من مرة في كتب التاريخ .. وجه غريب وبرجان غريبان ! واستعدت صورة استاذي القديم « حاول ان

تكون عنصر تجديد في حياتنا ... » وقبل ان استطيع ملاحظة الصلة الحقيقية بين هذه الذكريات الغامضة ، سمعت صرير عجلات على المنعطف القريب . كانت سيارة « تروبيدو » بيضاء فارهة تدور المنعطف في عنف جامح . وعبرت بي السيارة .. تقودها حسناء انيقة اليدين عصبية الحركة ، لها وجه طفلة لعوب ، يطل منه سواد عينين عميقتين وتلفه خصلات شعر بنية تناثرتها الريح .. لقد كانت تشبه صبية في الثانية عشرة تقفز جذلانة خلف كرتها على ارض ملعب في مرج اخضر ..

« ما كان أيسر ان يقفز الخيال خلف تلك الصورة ، الخيال الذي يحمله شاب ريفي .. لقد كنت مستعداً ان اتبع اول حب يصادفه قلبي ، أجل كنت اعول في ذلك على الصدفة ، ولم اقسر عواطفي ولا احاسيسي .. ما افتن تلك الصورة الطائرة مع الرياح ، التي هي صورتك ، رأيتك مرات قبل ذلك في الجامعة ، في المكتبة وفي النادي ، الا ان تلك الصدفة جعلت لك في عيني معنى جديداً . وتطور الامر فأصبحت احس بالحرج كلما التقينا وجهاً لوجه ، كانت تلك النظرة البريئة تشيع في اضطراباً داخلياً .

« ربما اوحت لك هذه الصور انني ابن مالك للأطيان في الريف ، لا يا آنسة! إنني لا املك إلا قطعة من الارض صغيرة يتعهدها والدي بيديه ، إنها كافية على كل حال لتحفظ علينا شرفنا ومروءتنا . أقول هذا لاوضح المسألة جيداً . صحيح ان وجودك كان ضرورة في حياتي ، ولكنني عندما حاولت تقديم نفسي اليك كزميل ، بكل بساطة ، برز امام عيني فجأة ، ما بيننا من فارق ، ذلك الجدار العالي الذي يفصل ما بيننا ، قد لا يكون هذا حقيقياً ، قد يكون مجرد شعور غير واضح بالنقص ، ماذا ينقص من قدر المرء اذا كانت ثيابه رثة قليلاً ؟

« يقولون : ان النفس حين تستيقظ ، يستيقظ معها الحب ، وقد يكون العكس صحيحاً . قد لا تتفتح الحقائق الا حين يتفتح القلب ، وانا لم ادرك أني مخلوق مغمور كنته إلا حين احببتك . ومن الطبيعي انني لم أبحث عن مبرر يقربني منك ويشدني اليك . لقد حاولت غير هذا ، حاولت ان اوقظ نفسي وحسب ، لانني لم اكن كفؤاً لك ، فقد كانت كل امكانياتي تبعدني عنك .

« يا للشيطان ، كم يشعر الانسان في تلك اللحظة الخارقة ، انه ملزم الى الابد بمنبته وحقيقته ... لقد انتابني الاسى ، وتذكرت وصية امي ، أن افكر في الله وأصلي لوجهه ، كلما لم اكن صالحاً للصلاة .. فمن بعيد كنت أرى اصدقاءك وصديقاتك مبتهجين دائماً ، سعداء ، تنطلق حياتهم في حركة نزوية مستمرة ، فقسرت نفسي وعواطفي ، وهربت من كل مكان امكن وجودك فيه .

« كنت في طريقي الى الجامعة ، ذات صباح من آذار ، وكان البرد لاذعاً والغيوم الثقيلة الراكدة تنذر بعاصفة شديدة . وهبت الرياح موازية لبردى ، وأخذت الامطار تتساقط على مهل ، ثم انهمرت غزيرة . لم يكن هنالك ما يقيني المطر ، فرفعت ياقة معطفي القديم ، ولففت نفسي به جيداً واسرعت اخذ السير . كانت الامطار تقرع ارض الشارع ، لها وقع كوقع السياط ، وأحسست رطوبتها تتسلل الى عظامي . . وفجأة .. لا إدري الى الآن كيف تم الامر ، اوقفت سيارتك ازائي ودعوتني بلطف الى الدخول .. كانت ماسحات الزجاج الامامي تعمل مسرعة لتكنس قطرات الماء .. كنت اراقب هذه العملية باهتمام ، ولكنني كنت في الواقع امنع نفسي عن النظر اليك ، وعندما وقفت بنا السيارة امام النادي ، كان علي ان اقول شيئاً ما يتسم باللطف ، ووجدت ذلك الشيء ، فقلت متلعثماً: آسف يا آنسة ، لقد افسدت مقعد سيارتك ، لقد تبلل بالماء ...

– لم يكن بد من ذلك ، يا اخي ، يجب ان تغير هذه الملابس على كل حال وإلا اصبت بالبرد .. ولكنك لن تجد هنا شيئاً منها ..

وبانحناءة رشيقة من رأسك الجميل تركتني ذاهلاً عند مدخل النادي ، دون ان تنتظري مني كلمة شكر واحدة.

« بقيت طيلة ذلك اليوم مخدر الحواس .. وفي المساء كتبت الى والدي رسالة اطلب فيها ثمن ثياب جديدة .. وكنت على يقين من ان هذا الطلب سيسبب لهم الضيق والحرج .. وحين اتيت بعد ذلك باسبوع تقريباً لابحث عنك ، دخلت الجامعة « دخول الفاتحين » .. تصورت انك تنتظرينني على مقعد في الحديقة ... يا لسخف تلك الخيالات المسرفة !. لقد تربصت ساعتين حتى استطعت ان اصادمك منفردة .. وحين ناديتك .. التفت الي ذاهلة .. ثم ارتسم ذلك النوع من الذعر الفطري على محياك . لقد قدرت تلك المشاعر التي ساورتك: مشاعر الخوف ، وأدركت انا ايضاً ان قلبك هو ابعد ما يكون عني .

– لا تخشي شيئاً ..! قلت متكلفاً الضحك . « كل ما في الامر هو اني اتيت لأعرب لك عن شكري .. اعتقد انك لم تنسي ذلك اليوم..» فنظرت الي بحيرة خلتها مصطنعة :

– أي يوم ..؟

– يوم انقذتني بسيارتك من العاصفة ..؟ فرحت تتفحصين هيئتي ..

– آه ، حسناً لقد تذكرت ..! ورمقتني بنظرة غائمة فيها تحد ، كانت تعني :« وماذا تريد ثمناً لذلك؟ لا تحاول ان تقدم نفسك ... » لقد ادرك قلبك الحساس انني كنت ابحث عن الحب بطريقة مقنّعة »

« لقد ازداد الجدار علواً ، والهوة نفوراً ، حين شعر كل منا ان الآخر قد اهانه بعمق وقسوة ، اهنتك في محتدك العالي وحساسيتك المفرطة وأهنتني في شرفي وكبريائي .

***

« هذه هي قصة الحب ، رويتها لك بكل تفاصيلها ، وهذه هي ايضاً قصة البحث عن السعادة ، وقد كانا كما ترين فاشلين تماماً .. لقد خلفت هذه القصة مرارة سامة في قلبي وفي فمي ايضاً .. انه سيء طعم هذه المرارة الذي يتذوقها اول مرة ..

« ماذا فعلت في دمشق ، هل حققت حلم استاذي الطبيب ، أهكذا يرتفع المرء بنفسه وبقيمه؟ كلا ، انه انحدار .. واي انحدار ..!

« انني لم احملك اية تبعة .. فالذنب لم يكن ذنبك ابداً ، ان تصرفك كان متسقاً مع حياتك ، لكن لندع هذا الحديث الآن : سأحدثك عن اشياء اخرى ! دخلت حياتي فيما بعد .. لقد رحت اسائل نفسي : ما السعادة ؟! أترتبط السعادة بالقلب ، أم انها تتصل بالمثل الاعلى .؟ سوف احدثك عن السعادة التي حصلت عليها .. انها نوع غريب من السعادة ، مرهفة كحد السيف ، تراود النفس في غير ساعات الحب ، انها ينبوع هادىء تنبثق منه المحبة باستمرار . أما هذه المحبة فهي محبة الشهداء واصحاب المبادىء ، والقديسين ، وأما هذه السعادة فانها نوع من الانسجام ينشأ عن تحقيق المثل الاعلى . لا شك في ان حياتنا الطائي قد شعر بمثل هذه السعادة

حين ذبح فرسه للضيوف ... كما شعر بها راسكولنيكوف حين اعترف بالجرم ...

« انها السعادة التي يخلقها الانسان بيده وبارادته اذن ، ورغم انها على هذا القدر من البساطة ، فهي عسيرة الفهم في كثير من الاحيان ، فانا مثلاً لم اقترب منها الا في ذلك اليوم ، الذي وجدت فيه فرصتي الوحيدة ، يوم تقدمت الى فرع اكتتاب التطوع بجيش الانقاذ العربي .

« احتشد طلاب الجامعة في مظاهرة عنيفة لم اشهد لها مثيلاً في حياتي ، أتدرين لماذا .. ؟ سأذكرك على كل حال.. لقد قامت العصابات الصهيونية، وخاصة عصابة « الهاغانا » بهجوم على احدى القرى العربية.وبينما وقف الجنود البريطانيون على « الحياد » اندفع اولئك المجرمون يدمرون كل شيء ويبقرون بطون النساء ويذبحون الشيوخ والاطفال على السواء . وثار الرأي العام العربي ، على هذا العدوان الذي ينافي الخلق الشريف . لقد كان جنودنا من جيش الانقاذ مثالاً للشرف في كافة المواقع، كانوا يحترمون الشيء الانساني وان كان معادياً .. ان هذا يثير ، يثير على نحو رهيب ، انها معركة قيم قبل كل شيء ، فعلى ارض فلسطين يقتتل شعبان قتالاً لا هوادة فيه ، اولهما عادل، عربي يقاتل في سبيل قضية شريفة،وثانيهما مستعمر يحاول ان يسلب الارض من مواطنيها ، وعلى تضحياتنا وعزائمنا نحن يتوقف المستقبل..!

« عندما دخلت الجامعة عصر ذلك اليوم ، كان ذلك يعني زيارتها للوداع ، انك لا تدركين ماذا كانت الجامعة بالنسبة الي .. لقد كانت وستظل في عيني رمزاً للحياة الجديدة . كانت الشمس تنعكس على ارض الحديقة ، التي بدت في الربيع المبكر اكثر عذوبة منها في اي وقت مضى، وبينما ساد الهدوء واخلد الجميع الى الصمت ، اخذت مكبرات الصوت تنقل لحني المفضل « كونشترو الكمان ، الثانية لتشايكوفسكي » . واخلدت الى الصمت بدوري ، فقد كان هذا الحادث الصغير يحمل معنى عظيماً بالنسبة لي ...

« وقفت وراء الباب الحديدي المغلق ، القي آخر نظرة على الجامعة .. وفي تلك اللحظة اقبلت اربع طالبات باتجاه النادي ، وكنت انت واحدة منهن ، وعندما اختفيت في مدخل النادي، استدرت لاتابع طريقي نحو حياتي الجديدة .

***

« لقد استطعت ان اجد هنا صديقاً وفياً . انه شجاع وطيب ، ولكننا لا نتحدث الا قليلاً .. كلانا يبدو راغباً في الانصراف الى نفسه . ولا ادري ان كانت له هو الآخر قصة تجعله يستسلم الى الوجوم.انه يوحي الي كسائر المجاهدين باحترام عميق ، لقد اتى اكثرهم بدافع بسيط هو الدفاع عن ارض الوطن ، ومن هنا اختلف عنهم اختلافاً يجعلني احس بالخجل بينهم ، انا اتيت ومعي قصة ، من يدري ، ربما كنت الآن في دمشق لولا تلك الخيبة،أليس في هذا ما يكفي للدلالة على نقاء تلك العواطف التي حملتهم على المجيء .. انهم اكثر تواضعاً واستبسالاً ..

« اننا نحيا حياتنا البسيطة ايضاً في غير ساعات القتال ، عندما نستظل اشجار الزيتون المخضرة ، في هذه الحقول العالية ، بعضنا يرمق الشمس الغاربة بنظرة متأملة تطفح بالأسى ، والبعض يخلو الى تذكاراته وهو يدخن في صمت .. وهنالك مجاهد يغني لحناً ريفياً بصوت شجي عذب كأنه الينبوع الجبلي ..

« ماذا ؟! ألم يحن الوقت الذي اختتم فيه هذه الرسالة .. اني في الحقيقة احن الى الزيادة، فهذه هي المرة الوحيدة التي نجتمع فيها على نحو حقيقي.. ساعترف لك اذن ، بأن ظلاً منك يلازمني دائماً ، ينتقل معي الى قلب المعركة ، وستظل هذه الصورة الرحمانية تقود خطاي .. حين تطل علي بوجه صبوح ذي عينين ، سوادهما عميق بريء ، وضفائر شعر بني تتناثر مع الريح ..

« انني اسألك ، ان تمنحيني الثقة ، التي لا اجدها بين حين وآخر ، فاسلم نفسي الى قلق ممذب . انني لا اعني الحب ، ان المسألة هي : هل اقتربت من مثلي الاعلى ..؟!. هل حققت حلم استاذي بأن اكون : « عنصر تجديد .. وواحداً من رجال الثورة .. » ؟.. اما ما عدا ذلك ، فعبث باطل ..

« لقد قلت كل شيء ، لقد احببتك وسأحبك طيلة حياتي ، واذا كنت قد لجأت اليك كما يلجأ الملاح الى ابعد ميناء تقع عليها عيناه ، فليس ذلك لاسألك شيئاً او لألزمك بأمر .. اجل لقد لجأت الى الحمى الذي تؤوب اليه القلوب المتعبة في ختام الشوط .. ولكنك ، لن تعرفي هذه الامور كلها الا بعد ان تكون السفينة قد تحطمت في اللجة البعيدة — ادهم .. »

***

بقيت اقلب الورقة الاخيرة ذاهلاً ، ولكنني اخذت القلم وكتبت حاشية صغيرة في اسفل الورقة جاء فيها كما اعتقد : « مسكين ادهم ، لقد سقط شهيداً في المعركة الاخيرة،ودفن بناء على طلبه في مقبرة المجاهدين بالقرية التي ستجدين اسمها على اختام البريد . اجل لقد رقد اخيراً بين عشرات المجاهدين حيث لايزين قبره المتواضع سوى غصن من السرو غرسته والدته، والا اسم المنقوش على شاهد القبر — صديق الشهيد . »

عندما وضعت الرسالة في البريد وعدت الى مركز السرية بقيت طيلة الطريق افكر في الامر ، لقد كان ادهم كئيباً دائماً، هكذا عرفته، لقد فهمت كل شيء،وقادني التفكير الى تساؤل غريب: كم هو عدد الجنود الذين حملوا معهم الى المعارك قلوباً كسيرة ؟! . ومهما كان الامر ، فلن يكون هؤلاء مجرد ارقام لا هوية لها .. انهم حقاً ابطال نضالنا المجهولون.. !

***

كنت امر بالقرية بين حين وآخر للتزود بالحاجات الضرورية، كالالبسة والتبغ والثقاب ، او لأضع رسائلي في البريد .. وفي كل مرة كنت اجمع من الحقول طاقة من الازاهير البرية لاضعها على قبر ادهم .

وفي ذات يوم مشمس ، عذب الرياح ، لقد كانت ظهيرة يوم الاثنين.. جمعت اكليلاً من الورود البرية ، وقصدت المقبرة ، وقد راعني حتى الذهول منظر سيارة « تروبيدو » اوقفت امام المقبرة . كانت سيارة بيضاء رشيقة فارهة . حسبت اول الامر انني في حلم .. ولكن لا ، فقد كان كل شيء حقيقياً .. حدثت نفسي وانا انقل النظر بين السيارة والاكليل : « يجب ان اذهب لزيارة بائع التبغ ، فهو انسان طيب .. » واستدرت عائداً ، لقد كان جسدي يختلج ، واحسست بالبهجة العميقة ، والفرح ، وبينما كنت اسير رأيت حلماً معسولا قصيراً ، رأيت : خصلات بنية وعينين سوداوين محبتين ، ثم وجهاً مسجى ، عيناه الزرقاوان تحدقان في السماء تحديقاً عميقاً ، وعلى شفتيه اللتين انفرجتا قليلاً ، رقت ابتسامة عذبة نضيرة ..

سامي عطفه